فلسفة الحج موقعاً وعبادة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

محسن الأسدي

الحج فريضة سماوية مباركة، وتكليف إلهي عظيم، وركن عبادي متين، وضيافة للتائبين، وفرصة للمذنبين، وتذكير للغافلين، ودعوة مفتوحة مباركة لهم ولغيرهم من الناس أجمعين، ومؤتمر إسلامي مهم، وتجمع إيماني مهيب، وحشد اقتصادي تجاري كبير، ومدرسة تعارفية اجتماعية ثقافية كبرى، تتسم بمعان عالية وقيم شامخة ومبادئ رفيعة، وهي بالتالي مدرسة ميدانية واسعة واعدة واعية، ضمت شعوباً وقبائل وفدت إليها من كل حدب وصوب، وقد قيضت لها السماء مكاناً واحداً، موسماً واحداً، هدفاً واحداً، منسكاً واحداً، نراهم ينتظمون لأداء مفاصله المتعددة، و يتسابقون إلى إحراز مغفرة من الله ورضوان، وإذا ما نظرنا إليها وجدناها جموعاً من شتى البقاع والأجناس والألوان رجالاً ونساءاً شيباً وشباناً، محتشدةً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، وقد ذاب كل ما يميزهم من حطام الدنيا ومعالمها، ومن حب الذات وعناوينها، ويترك هذا التجمع العظيم الرائد المهيب في قلوب الآخرين مهابة وإعجاباً... وفي نفوس وقلوب أبنائه سكينة وطمأنينة و ثقة وقوة وعزة... وحتى يتحقق هذا والكثير غيره، فقد حظيت فريضة الحج بأهمية بالغة ومكانة كبيرة في الشريعة الإسلامية سواء أكانت تلك الأهمية وهذه المكانة في أحكامها أم في مناسكها أم في أهدافها ومقاصدها. وكل

هذا يدل على رعاية الشريعة لها وتأكيدها الدائم على استمرارها وإقامتها بشكل يتناسب مع روحها وجوهرها ومع الحكمة من وراء تشريعها. ولذا ينبغي لنا بل يجب علينا ونحن نؤدي هذا الفرض المبارك أن نعي معانيه و أهدافه ونعي مسؤولياتنا إزاءه، ويجب علينا أن نتعرف على ما يترتب على أداء مناسك الحج من التزامات سواء أكانت التزامات روحية أم أخلاقية، اجتماعية أم سياسية، وسواء أكانت مردوداتها لنفس الشخص الحاج أم للآخرين، وسواء أكانت ثمارها لمجتمع الحج وحده الذي شارك في أداء مناسكه أم للمجتمعات الأخرى، وعلينا أن لا نكتفي بمعرفة أحكام الحج الفقهية وكيفية أداء مناسكه وفق تلك الأحكام، وهو وإن كان أمراً مهماً وضرورياً، إلّا أن الاكتفاء به دون معرفة ودون إلمام بما ترمي إليه وبما تبتغيه هذه الفريضة يعد نقصاً صارخاً في التفاعل معها روحاً وأهدافاً ومقاصد، وفشلاً واضحاً يلحقنا في الاستفادة من خياراتها والاستزادة من بركاتها.

ويترك هذا التجمع العظيم الرائد المهيب في قلوب الآخرين مهابة وإعجاباً... وفي نفوس وقلوب أبنائه سكينة وطمأنينة و ثقة وقوة وعزة...

وإذا ما تمت هذه المعرفة وتعمقت آثارها في النفوس وتجذرت ثمارها في السلوك، فسيجسد هذا الركن القويم من الشريعة الإيمان في سلوكنا عبادةً وعملاً وسلوكاً وقولاً، وسيصبح صورة رائعة من صور الجمال المعنوي والروحي ينبغي أن لا تفوتنا وأن لا نخسرها، وميداناً للكدح والجهاد، ينبغي أن تلاحق الحاج في أيامه وهو يؤدي هذه الفريضة، وفي أيامه التالية وهو يعيش حياته بين أهله وأحبائه، و هو يعيش مع أبناء مجتمعه الآخرين في عيشه وكسبه وأنشطته المتعددة هنا وهناك.

إذن كم هو عظيم موسم الحج! فقد غدا هذا الموسم - ومنذ أن دوى أذان

نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجٰالاً وَ عَلىٰ كُلِّ ضٰامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1] ـ غدا موسماً عبادياً ما أعظم بركاته على تربية النفوس و تزكية الأرواح ! وموسماً تجارياً ما أعظم منافعه التي يدرها على المسلمين عامة والحجاج خاصة ! ما أعظمه من موسم بأيامه المعلومات امتزجت فيه العبادة والتجارة، فهي منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة حقاً ﴿لِيَشْهَدُوا مَنٰافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيّٰامٍ مَعْلُومٰاتٍ ...﴾[2]! وكم هي جميلة تلك العبادة التي تلاحق آثارها الإنسان وتترك بصماتها عليه ! حقاً إنّها ولادة جديدة وحياة أخرى غير تلك التي عاشها إن استطاع أن يحيا معاني الحج و يقتطف ثماره...

كلّ هذا وغيره هو ما نراه مجسداً في خطب وأحاديث وأدعية أئمة مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وفي رؤاهم لمفاهيم هذه الفريضة ولحكمها وأهدافها، وفيما كتبه علماؤها وفقهاؤها، مكتفين من ذلك كله – وهو الكثير الذي ضمته مجلدات عديدة – بما يسمح به مجال هذه المقالة.

* * *

(١) سورة الحج: ٢٧.

(٢) سورة الحج: ٢٨.

إنّنا هنا بصدد الحديث عما تراه وتتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من نظرات وآراء ومواقف تتعلق بفريضة الحج من حيث ظرفها المكاني ومحورها العبادي بكل ما يحمله الأول من موقع جغرافي معروف بوعورة الأرض وصعوبتها وقسوة الطبيعة وشدتها... وبكل ما يحمله الثاني من مفاهيم عالية، ومضامين رفيعة، وقيم نادرة... وبكل ما يحملانه من ابتلاء شديد وامتحان أشد، وفرصة للمغفرة والرحمة ما أعظمها! ومناسبة لنيل رضا الله ما أوسعها! عبر أيام قدرت لها السماء:

* أن تكون معدودات ﴿واذكروا الله في أيّام معدودات﴾[1] وهي أيام التشريق، اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة.

يقول السيد الطباطبائي في ميزانه: والدليل على أن هذه الأيام بعد العشرة من ذي الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أيام الحج، والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين...﴾، فإن التعجيل في يومين إنما يكون إذا كانت الأيام ثلاثة: يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهي ثلاثة، وقد فسرت في الروايات بذلك أيضاً[2].

إنّنا هنا بصدد الحديث عما تراه وتتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من نظرات وآراء ومواقف تتعلق بفريضة الحج من حيث ظرفها المكاني ومحورها العبادي بكل ما يحمله الأول من موقع جغرافي معروف بوعورة الأرض وصعوبتها وقسوة الطبيعة وشدتها... وبكل ما يحمله الثاني من مفاهيم عالية، ومضامين رفيعة

* وأن تكون معلومات ﴿وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾[3]. وقد اختلفت الروايات في المراد منها كما اختلفت في الأيام المعدودات أيضاً، ولكننا نكتفي بما ذكره العلامة في تفسيره الميزان.

يقول العلامة: وفي هذا

(١) سورة البقرة: ٢٠٣.

(٢) راجع تفسير الميزان ٢: ٨٣.

(٣) سورة الحج: ٢٨.

المعنى روايات أخر عن الباقر والصادق عليهما السلام، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «هي أيام التشريق». وهناك ما يعارضها، كما يدل على أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة، والمعدودات أيام التشريق. وينتهي إلى أن الآية أشد ملائمة لما يدل على أن المراد بالمعلومات أيام التشريق[1]. إذن فالأيام المعدودات و الأيام المعلومات عند العلامة هي أيام التشريق[2].

وهذه الأيام المعدودات أو المعلومات هي بالتالي أيام الله تعالى، كما سماها أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو ما جاء في كتابه إلى عامله على مكة قثم بن العباس: «أما بعد... فأقم للناس الحج، وذكّرهم بأيام الله...»[3].

تعد هذه المدرسة مدرسة الإسلام الأولى علماً ومعرفةً بدين الله تعالى وأحكامه ومعارفه ومقاصده... فقد راحت ـ مع عظيم مسؤولياتها وانشغالها في مكافحة الأفكار المنحرفة الوافدة من هنا وهناك، وخطورة ما تعرضت له من ظلم وتعسف ومؤامرات حكام الجور والسائرين بركابهم، لإبعادها عن خطها ومنهجها الذي اختطته لها السماء ـ راحت ترعى هذه الفريضة وتتبناها، وتوضح معانيها ومقاصدها وأهدافها وحكمها بوعي كامل وحرص أكيد على استمرارها حيةً فاعلةً مؤثرةً، لهذا لم يترك أئمة هذه المدرسة الحج وهو يؤدى محتفظاً بإطاره الشكلي، الذي يكتفي به البسطاء من الناس، والذين قلّت معرفتهم بأهدافه ومقاصده قصوراً منهم أو تقصيراً، و الذي يركن إليه المنحرفون من حكام ومن مستفيدين ويشجعون عليه بل ويثقفون الرعية عليه، بعيداً عن روحه ومنهجه الذي انطلق مع أول نداء وجّهه الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، يدعو الناس فيه إلى الحج: ﴿ **وَ أَذِّنْ فِي النّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلىٰ كُلِّ ضامِرٍ**

(١) الميزان ١٤: ٣٧٩.

(٢) أنظر تفسيره للآيتين: ٢٠٣ من سورة البقرة و٢٨ من سورة الحج.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٦٧.

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، وغدا وجوبه من ضروريات الإسلام بنص الآية الكريمة: ﴿وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ﴾[1] وفي تأكيد وجوبه والتحذير من عواقب تركه، جاء في الخبر النبوي بطريق أهل البيت عليهم السلام فيمن وجب عليه الحج ولم يحج: «**فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً**»[2] ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطباً الإمام علياً عليه السلام: «**يا علي تارك الحج وهو مستطيع كافر**»، ويستدل بالآية الكريمة لتأكيد ذلك: ﴿وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ﴾، ولم يكتف بهذا، بل واصل خطابه قائلاً: «**يا علي من سوّف الحج حتى يموت، بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً**»[3].

أما الإمام زين العابدين عليه السلام وهو المعروف بكثرة حجه بيت الله الحرام، فقد راح يبين أثر هذه الفريضة المباشر على الإيمان، فكان يوصي أصحابه بقوله: «**حجوا واعتمروا... يصلح إيمانكم**»[4].

إن هذا التشديد على أداء هذه الفريضة والترغيب فيها، وهذا النكير على من تعمد تركها، أدلة واضحة على أهميتها وعلو مكانتها وقدسيتها، فهي تتوفر على جميع العبادات الأخرى، وهناك مصالح وغايات عالية المضامين تترتب على أدائها في بناء شخصية الإنسان المؤمن نفسه وتكامل إيمانه ورقيه في سلم التقوى، التي هي أساس كل شيء، وما يترتب على ذلك من كون الإنسان المؤمن شخصية مطلوبة لله سبحانه وتعالى، يمكن أن تؤدي دورها المرسوم لها في الحياة الدنيا،

(١) آل عمران: ٩٧.
(٢) التهذيب ٥: ٤٦٢/١٦١٠.
(٣) وسائل الشيعة ٨: ٢١.
(٤) وسائل الشيعة ٨: ٢١.

ويتجلى هذا الدور في كونه خليفة الله تعالى في أرضه بكل ما تعنيه هذه الخلافة من دور إيجابي وعمل فاعل مغير في واقع الحياة على جميع أصعدتها الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية... فالهدف الأسمى للشرائع السماوية عامة والشريعة الإسلامية خاصة هو خلق إنسان اجتماعي مؤمن ملتزم يألف الآخرين ويتآلف معهم، يودهم ويودونه يحبهم ويحبونه، مبشراً بالخير منذراً الذين في قلوبهم مرض، فيكون بذلك مثالاً طيباً ونموذجاً رائعاً لما تريده السماء وتهدف إليه، ويكون جديراً بتحمل أعباء الأمانة ومسؤوليات الخلافة، التي أعدته السماء لها ويحسن أداءها والحفاظ عليها..

فهناك الأحاديث المنقولة بطرق مختلفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، التي أضافت عنصراً عظيماً لهذه الفريضة، حيث جعلتها ميداناً تدريبياً تربوياً، لخوض الميادين الكبرى في الحياة

من هنا، راحت جهود أئمة هذه المدرسة تنصب على تحريك مضامينه ومقاصده هذه ـ والأخرى غيرها ـ في الأمة، فضلاً عن توضيح أحكامه عبر مواقفهم و نصوصهم الكثيرة جداً، فهناك الأحاديث المنقولة بطرق مختلفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، التي أضافت عنصراً عظيماً لهذه الفريضة، حيث جعلتها ميداناً تدريبياً تربوياً، لخوض الميادين الكبرى في الحياة، في العبادة وفي الكدح والجهاد، والتي منها جهاد النفس، بل جعلته الجهاد بعينه، أو ساوت بينه وبين الجهاد القتالي دفاعاً عن الإسلام وبيضته.

ومن تلك الأحاديث ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**نعم الجهاد الحج**». «**الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله دعاهم**». وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**والصلاة قربان كل تقي ، والحج جهاد كل ضعيف**»[1]. «**الحج جهاد**

(١) نهج البلاغة: ١٣٦، الحكم.

الضعفاء»[1]. **«الحج جهاد»**. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«من اتخذ محملاً للحج كان كمن ارتبط فرساً في سبيل الله»**. فالذي لا يقوى على الجهاد يكون الحج جهاده عوضاً له عن ذلك الجهاد الذي ينوء به، لضعفٍ اعتراه، أو لمانع يقف حائلاً دون خوضه وأدائه، والذي لا تصبر أو تتصابر نفسه على تحمل أعباء الجهاد ومستلزماته وهو أعظم درجة عند الله، فإن الحج له دورة تمهيدية تدريبية على تعويد النفس وتدريبها على التحمل والصبر والمثابرة والبذل والعطاء...

وهناك أحاديث أخرى راحت تميز بين حجين: حج يراد به وجه الله تعالى وبالتالي الفوز برضاه وأجره وثوابه، وحج آخر بعيد عن حكمة تشريع الحج وأهدافه، التي أولها وأهمها وأساسها أن يؤدى قربة إلى الله سبحانه وتعالى بكامل ما تعنيه هذه القربة من التزامات وواجبات... يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«الحج حجان: حج لله. وحج للناس. فمن حج لله، كان ثوابه على الله الجنة، ومن حج للناس، كان ثوابه على الناس يوم القيامة»**[2]

فالحج بذاته يجب أن تتحقق رسالته الإنسانية في حياتنا. ويجب أن يتحقق دوره في وجودنا بصدق توكلنا عليه تعالى، وإخلاصنا

وقد فرقت مدرسة أهل البيت بين حجين آخرين أيضاً: الحج الهدف. والحج الوسيلة، فعن عبد الرحمن بن كثير أنه قال: «حججت مع أبي عبد الله عليه السلام، فلما صرنا في بعض الطريق، صعد على جبل فأشرف فنظر إلى الناس فقال: ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج»[3]. إنها فئة كثيرة، ولكن ليس لها من حجها إلا الصياح والصراخ والتعب والتزاحم. فالأعداد الكثيرة والحشود الكبيرة والتدافع و

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٩.

(٢) ثواب الأعمال ١٦: ٧٤.

(٣) بحار الأنوار ٣٠: ١٨١.

الضجيج والصراخ شيء، والفئة القليلة الواعية المتمتمة ألسنتها الصادقة بالدعاء، والملبية تلبية نابعة من سلامة القلوب وإخلاص النوايا شيء آخر، فأولئك هم الخاسرون، وهؤلاء هم الفائزون قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

فالحج بذاته يجب أن تتحقق رسالته الإنسانية في حياتنا. ويجب أن يتحقق دوره في وجودنا بصدق توكلنا عليه تعالى، وإخلاصنا ونحن نؤدي مناسكه ونرتل قرآنه ونقرأ دعاءه، وهكذا العبادات الأخرى، فهي والحج وسائل و دورات تدريبية، الهدف منها بناء الشخصية الإيمانية وتكاملها.

وقد ورد في هذا الكثير من الروايات عن هذه المدرسة بدءاً برسول الله صلى الله عليه وآله، فعن النبي صلى الله عليه وآله بطريق الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من حج هذا البيت بنية صادقة، جعله الله تعالى من الرفيق الأعلى من النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً**»[1]. وعن النبي صلى الله عليه وآله بالطريق نفسه: «**الحجة ثوابها الجنة، والعمرة كفارة كل ذنب**»[2]. وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**إنك إذا توجهت إلى سبيل الحج، ثم ركبت راحلتك وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم ومضت بك الراحلة، لم تضع راحلتك خفاً ولم ترفع خفاً إلا كتب الله لك بكل خطوة حسنة، ومحا عنك سيئة، فإذا أحرمت ولبيت، كتب الله لك بكل تلبية عشر حسنات، ومحا عنك عشر سيئات، فإذا طفت أسبوعاً كان لك بذلك عند الله عهد وذكر يستحي أن يعذبك بعده، فإذا صليت ركعتين عند المقام كتب الله لك بهما ألف ركعة مقبولة، وإذا سعيت بين الصفا والمروة سبعة أشواط كان لك عند الله عز وجل مثل أجر من حج ماشياً من بلاده ومثل أجر من أعتق سبعين رقبة مؤمنة، وإذا وقفت بعرفات إلى غروب الشمس فلو كان عليك من الذنوب مثل رمل عالج وزبد البحر لغفرها الله لك. فإذا رميت الجمار كتب الله لك بكل حصاة عشر حسنات. فإذا ذبحت هديك كتب الله لك بكل قطرة من دمها حسنة. فإذا طفت**

(١) بحار الأنوار ٣٠: ١٨١.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٦.

بالبيت أسبوعاً للزيارة، وصليت عند المقام ركعتين، ضرب ملك كريم بين كتفيك: أما ما مضى فقد غفر لك، فاستأنف العمل فيما بينك وبين عشرين ومائة يوم»[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أردت الحج، فجرد قلبك من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب حاجب، وفوض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة**»[2].

والحوار الذي دار بين الإمام زين العابدين عليه السلام والشبلي مليئ بأسرار هذه الفريضة المباركة، وبعلو مضامينها، ودور كل من النية الصادقة والجهد المخلص الدؤوب والتفكر الواعي العارف في اكتساب مقاصدها الرفيعة في كل منسك وفي كل موقف تتضمنه هذه الفريضة المباركة. ومن أراد الاطلاع على هذا الحوار القيم بتفاصيله الواضحة، فما عليه إلا الرجوع إلى ما كتبه أخونا الأستاذ سماحة الشيخ محمد علي المقدادي في العدد الرابع من هذه المجلة (ميقات الحجّ)، الصفحة ٨٩-٨١.

كما راحت هذه المدرسة تؤكد مضامين الحج وما يتوفر عليه من معان جميلة وآداب جليلة وقيم رفيعة، ينبغي للحجيج بل يجب عليهم التحلي بها والالتزام بها وتحويلها إلى سلوك متحرك وفاعل في حياتهم الفردية والاجتماعية، وتستنكر على أولئك الذين انحصر همّهم بشكل الحج دون الاهتمام بمحتواه، وإطار الحج دون رعاية مضامينه، ودون التأثر بآثاره والتقيد بأحكامه، وتغيير مسيرة حياتهم على ضوء أهداف هذه الفريضة المباركة. يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**لئن أعول أهل بيت**

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٢٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٣.

من المسلمين أشبع جوعتهم و أكسو عريهم وأكف وجوههم عن الناس، أحب إليّ من أن أحج حجة وحجة وحجة حتى انتهى إلى عشرة ومثلها حتى انتهى إلى

سبعين»[1]. إنّه الوعي الأكمل للعبادة ومفاهيمها العالية، وإنّه الإحساس الأعمق بآلام الآخرين والاهتمام الأمثل بشؤونهم، وإنه التربية الأخلاقية الرفيعة للعبادات ومنها تكليف الحج، التي تؤكدها هذه المدرسة الطاهرة بخلق إنسان اجتماعي عبر أدائه لمناسك الحج، يكون همه الإحسان للناس واللطف بهم بتفقد حاجاتهم وقضائها أو على الأقل السعي لقضائها، وإشباع ضروريا تهم وإغاثة ملهوفهم وحفظ حرمتهم وكرامتهم ومصالحهم... وإلا ما فائدة العبادة إن كانت لا تتعدى أنشطة تؤدى وفعاليات رتيبة اعتدنا على فعلها، ولا تتجاوزها إلى سلوك عملي نافع، و فعل اجتماعي طيب مؤثر، وإلى فضيلة متحركة مغيرة، وإلى أمر بمعروف ونهي عن منكر؟!

الإمتحان أرضاً وبناءً

إن الحج، مع كونه شرع رحمة للناس، ومكان دعاء لا يقنط العباد من استجابة الله تعالى لهم فيه، ودار ضيافة موائدها كلها خير وعطاء، إلا أنّه، مع ذلك كله، امتحان شاق للعباد، واختبار دقيق للمؤمنين، راحت تعد له السماء – ولحكمة بالغة قد لا تدرك العقول جل مقاصدها وإن جهدت – موضعاً وصفته الآية الكريمة ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، ووصفه أمير المؤمنين علي عليه السلام بهذا النص الرائع: «**ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم ـ صلوات الله عليه ـ إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الذي جعله للناس قياماً**». هذا وصف للبناء وما يتكون منه: أحجار صماء خالية من كل شعور وإحساس. أما موقع هذه الأحجار فهو بقعة أرض وعرة...، كما عبر عنها أمير المؤمنين سلام الله عليه:

«**ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى**

(١) بحار الأنوار ٣٠: ١٨١.

منقطعة، لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف».

إذن البيت ـ كما صورت الآية وكلمات أمير المؤمنين ـ مكانه لا يعدو كون أرضه أرضاً جرداء موحشة، وبنيته من طوب ومدر، وبالتالي فالبيت موقعاً وبناء لا يرى من حوله ممن يطوفون به، ولا يسمع دعاءً منهم ولا قراءةً ولا تكبيراً ولا تلبيةً، ولا توسلاً منهم ولا بكاءً... وبالتالي ـ أيضاً ـ لا يمنع ضرراً قد ينزل بهم، ولا يدفع سوءاً قد يلم بهم، ولا يقدم لهم نفعاً ولا يمنحهم أجراً... فيما كانوا يعبدون أصناماً صنعت أيضاً من طوب ومدر و... ولكنهم اعتقدوا أنها تسمع وترى، وتضر وتنفع... فالفرق كبير جداً بين عبادة الأصنام، التي يعبدونها وظلوا لها عاكفين في جاهليتهم، والتي لا تضر ولا تنفع، ولا تميت ولا تحيي... وبين عبادة الله تعالى وهو الحي القيوم، فيما أمرهم به من مناسك وشعائر، شاءت إرادته وحكمته تعالى أن تؤدى في هذا الوادي وبين جبال صماء وأرض صحراءٍ ملتهبة، فكان طوافهم وكان سعيهم وكانت مناسكهم الأخرى، التي راحوا يؤدونها وهم بكامل وعيهم وإرادتهم، وبشوق لا ينطفئ، ولهفة لا تخبو، وقد هجروا الأهل والأحبة والأموال، وعيونهم مشرئبة نحو السماء تنتظر منها العوض بالعفو والمغفرة والرضا، يكتنفهم الحب لله تعالى وحده، وهم يعيشون أجواء التوحيد الخالص، والعبودية الخالصة والانقياد التام لخالق السموات والأرض وما بينهما، وإن نفوسهم – مع أنها تعيش في هكذا محيط مبني من الأحجار ومن الطين وسعف النخيل – لقادرة على أن تكون منقادة إلى الله سبحانه وحده، كافرة بكل ما يدعى من أنداد له.

إن الحج، مع كونه شرع رحمة للناس، ومكان دعاء لا يقنط العباد من استجابة الله تعالى لهم فيه، ودار ضيافة موائدها كلها خير وعطاء، إلا أنّه، مع ذلك كله، امتحان شاق للعباد، واختبار دقيق للمؤمنين

تقول الرواية عن أبي جعفر عليه السلام: **«إذا دخلت المسجد الحرام، وحاذيت الحجر الأسود فقل: أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً**

عبده ورسوله، آمنت بالله وكفرت بالطاغوت وباللات والعزى وبعبادة الشيطان وبعبادة كل ند يدعى من دون الله...».

نعم، مجسدةً ما ترددده في أغلب أوقاتها في موسم الحج وهي تؤدي شعائره المباركة:

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك. إذا ما خلصت في انقيادها له جل اسمه وفي طاعتها وفي استسلامها لأوامره.... انه اختبار عظيم، وابتلاء خطير، وتمحيص شديد وفتنة تتصف بالدقة حتى يعلم الله تعالى الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

* * *

وهذا شرح مختصر لما ورد في المقطع الأول الذي ذكرناه أعلاه من خطبة الإمام علي عليه السلام، وقد وصف فيه الكعبة أرضاً وبناءً:

... **﴿وجعله للناس قياماً﴾**، وهذا اقتباس من الآية المباركة: **﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ...﴾**[1]. والقيام هنا يحتمل أن يكون مصدر «**قام يقوم**» والمعنى: إن الله جعل الكعبة سبباً لقيام الناس إليها، أي لزيارتها والحج إليها، أو لأنها يصلح عندها أمر دين الناس ودنياهم فهم فيها يقومون.

يقول الشيخ الطبرسي في تفسيره: قياماً للناس، «أي جعل الله حج الكعبة أو نصب الكعبة قياماً للناس، أي لمعايش الناس ومكاسبهم، لأنّه مصدر قاموا كأن المعنى: قاموا بنصبه ذلك لهم، فاستثبتت معايشهم بذلك، واستقامت أحوالهم به لما يحصل لهم في زيارتها من التجارة وأنواع البركة».

ثمّ نقل الطبرسي رواية عن سعيد بن جبير: «من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه». ثمّ قال عمّا ورد فيها: «وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام». ثمّ أردفها برواية رواها علي بن إبراهيم عنهم عليهم السلام، قال: «ما دامت الكعبة يحج

(١) المائدة: ٩٧.

الناس إليها، لم يهلكوا، فإذا هدمت، فتركوا الحج هلكوا»[1].

أما السيد الطباطبائي فقد قال عن ذلك: «ظاهر تعليق الكلام بالكعبة ثم بيانه بالبيت بأنه حرام، وكذا توصيف الشهر بالحرام ثم ذكر الهدي والقلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمة البيت، كل ذلك يدل على أن الملاك فيما يبين الله سبحانه في هذه الآية من الأمر إنما هو الحرمة».

عن سعيد بن جبير: «من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه»

ثمّ بعد هذا يقول: «والقيام ما يقوم به الشيء، قال الراغب: والقيام والقوام اسم لما يقوم به الشيء، أي يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به كقوله: ﴿وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ قِيٰاماً﴾، أي جعلها مما يمسككم، وقوله: ﴿جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ قِيٰاماً لِلنّٰاسِ﴾، أي قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم... فيرجع معنى قوله: ﴿جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ قِيٰاماً لِلنّٰاسِ﴾، إلى أنّه تعالى ـ والكلام ما زال للسيد الطباطبائي ـ جعل الكعبة بيتاً حراماً احترمه، وجعل بعض الشهور حراماً، ووصل بينهما حكماً كالحج في ذي الحجة الحرام، وجعل هناك أموراً تناسب الحرمة كالهدي والقلائد، كل ذلك لتعتمد عليه حياة الناس الاجتماعية السعيدة، فإنه جعل البيت الحرام قبلةً يوجه إليه الناس وجوههم في صلواتهم ويوجهون إليه ذبائحهم وأمواتهم، ويدوم به دينهم، ويحجّون إليه من مختلف الأقطار وأقاصي الآفاق، فيشهدون منافع لهم، ويسلكون به طرق العبودية. ويهدى باسمه وبذكره والنظر إليه والتقرب به والتوجه إليه العالمون. وقد بينه الله تعالى بوجه آخر قريب من هذا بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبٰارَكاً وَ هُدىً لِلْعٰالَمِينَ﴾[2].

(١) مجمع البيان في ذيل تفسير الآية ٩٧ من سورة المائدة.

(٢) آل عمران: ٩٦؛ تفسير الميزان، عند الآية ٩٧ من المائدة.

إذن، فالكعبة موضوع مهم بما يحمله من آثار طيبة ومعان جميلة في دنيا المؤمنين وفي أخراهم، تتكامل من خلالها عباداتهم، وتسمو بأجوائها نفوسهم، وتقوى بها شوكتهم، وتتآزر بسببها أواصرهم، وتتعمق علاقاتهم بكل مفاصلها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، لهذا ولغيره صارت الكعبة قياماً وعلماً ورايةً خفاقةً تحمل كل مجد وعزة للإسلام وللمسلمين، وهو قول علي عليه السلام عن بيت الله الحرام: «**جعله الله سبحانه وتعالى للإسلام علماً**». وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «فرض الله... والحج تقربة للدين» حقاً إنه مكان لتقريب الآخرين للإسلام، ومكان دعوة إليه بعرض أفكاره ومبادئه وأحكامه. فيما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة**».

قال علي عليه السلام: «**ألا ترون أنّ الله اختبر الأوّلين من لدن آدم...**».

من اللافت أن هذا المقطع وبالذات السطر الأول منه يقرر شيئاً تاريخياً مهماً، وهو أن إبراهيم عليه السلام لم يكن هو المؤسس الأول للكعبة المشرفة، وإنما كانت في زمن آدم عليه السلام وربما كانت سابقة عليه، ولم يبق منها إلا قواعدها أو أسسها، وكل ما قام به نبي الله إبراهيم عليه السلام أن رفع تلك القواعد بأن بنى عليها بناءه الذي شيده وابنه إسماعيل عليهما السلام. والأدلة على هذا كثيرة: آيات قرآنية وأخرى روائية، جاءت بها كتب الفريقين، وما دامت مقالتنا تختص بما تراه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، نذكر بعض رواياتهم، بعد الآيات الكريمة التالية: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾. عند: تدل على وجود شيء سابق، وهي اسم مكان الحضور حقيقة كما تقول جلست عند زيد، ومجازاً نحو عند زيد علم... وهذا وجه من وجهين ذكرهما الشيخ الطبرسي في تفسيره للآية حيث يقول «... ويسأل فيقال: كيف سماه بيتاً ولم يبنه إبراهيم عليه السلام بعد؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أنه لما كان من المعلوم أنه يبنيه، سماه بيتاً، والمراد عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه. والثاني: إن البيت قد كان قبل ذلك وإنما خربه طسم وجديس[1]، وقيل: إنه

(١) وهما قبيلتان من سكان مكّة انقرضتا، وقيل: هيان بن عياد.

رفعه الله إلى السماء أيام الطوفان...»[1].

﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]. والقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوق. يرفع القواعد:أي البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع. إذن القاعدة من البناء: أساسه وجمعها قواعد. وتأتي القاعدة بمعنى الضابط أو الأمر الكلي ينطبق على جزئياته وهذا ليس محل كلامنا[3]...

فالقواعد كانت موجودة، وهو ما يفهم من الآية، وأن كلاً من إبراهيم وإسماعيل عملا على رفعها. وقد يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ شاهداً على ذلك.

والذي يراه العلامة أن ما ورد من الروايات من أن الكعبة أول بيت بمعنى أول بقعة من الأرض، وأنّه يستظهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً...﴾[4] ما تشتمل عليه الروايات التي تقول: «**قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس**» أو «كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع للعبادة للعالمين».

وبدلالة ذيل الرواية، فإن الحطيم وبالتالي الكعبة كانت موجودة في عهد آدم عليه السلام

وعن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن الحطيم – وهو ما بين الحجر الأسود والباب – لم سمي الحطيم؟ قال عليه السلام: لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً، وهو الموضع

(١) مجمع البيان، عند سورة إبراهيم: ٣٧.
(٢) البقرة: ١٢٧.
(٣) أنظر المعجم الوسيط: ٧٤٨.
(٤) آل عمران: ٩٦.

الذي تاب فيه الله على آدم عليه السلام»[1]. وبدلالة ذيل الرواية، فإن الحطيم وبالتالي الكعبة كانت موجودة في عهد آدم عليه السلام.

قدم الكعبة ودحو الأرض:

والدحو لغةً من دحا الشيء أي بسطه ووسعه وبابه عدا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰاهٰا﴾[2]. أي بسطها و أوسعها أو مدها لسكنى أهلها أو جعلها دحية وهي البيضة[3]. ويقول كل من شيخ الطائفة الطوسي وتبعه الشيخ الطبرسي في تفسيرهما: والدحو أي البسط ومعنى دحاها أي بسطها، وهي لغتان دحا يدحو دحواً ودحيت أدحي دحياً، قال أمية بن الصلت: دار دحاها ثم أعمر بانيها وأقام بالأخرى التي هي أمجد وقال أوس:

ينفي الحصى عن جديد الأرض مبترك
كأنه فاحص أو لاعب داح[4]

فيما ذكر العلامة السيد الطباطبائي: أنّ دحاها «أي بسطها ومدّها: أن الدحو بمعنى الدحرجة». ناسباً هذا القول إلى بعضهم[5].

والذي يراه العلامة أن «الأخبار في دحو الأرض من

(١) مجمع البيان ١ـ٢: ٧٩٧.
(٢) النازعات: ٣٠.
(٣) أنظر مختار الصحاح والمعجم الوسيط، مادّة: دحا.
(٤) راجع مجمع البيان والتبيان، الآية.
(٥) الميزان: الآية.

تحت الكعبة كثيرة وليست مخالفة للكتاب ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك».

أما الروايات التي نقلت لنا عن أهل البيت عليهم السلام فهي كثيرة، والتي تتحدث عن دحو الأرض في ٢٥ من شهر ذي القعدة الحرام من تحت الكعبة.

منها: عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «لما أراد الله أن يخلق الأرض، أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثم دحا الأرض من تحته، وهو قول الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها»[1].

ويرى العلامة الطبرسي في تفسيره: أن الآية فيها دلالة على أنه «لم يكن قبله بيت مبني، وإنما دحيت الأرض من تحتها، وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الله تعالى السماء والأرض من تحتها»[2]...

من هذا يتضح لنا أن الكعبة تاريخياً لها عمق بعيد جداً قد يتجاوز وجود الإنسان الأول المتمثل بآدم عليه السلام قليلاً أو كثيراً، وقد يتزامن معه، فالأمر متروك للبحث التاريخي ودقة أدواته، ولكن الذي يبدو ثابتاً ومن خلال فهم المتيسر من الأدلة أن الكعبة كان لها وجودها المبارك قبل نبي الله إبراهيم عليه السلام، وأن المتيقن من النصوص القرآنية أنه قام وابنه إسماعيل ببنائها بأمر من الله تعالى.

هذا وإن الذي يبدو من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن جبريل عليه السلام هو أول من بنى البيت الحرام، وأن الملائكة هي أول من طاف بهذا البيت، وهكذا صار الطواف حول البيت سنة الأنبياء بدءاً بآدم عليه وعليهم السلام، وفي رواية أخرى: أن الملائكة بني لها بيت في السماء يسمى الضراح بإزاء العرش فهي تطوف به، وأن هذا البيت أي البيت الحرام، بناه آدم بإزاء ذلك. واما إبراهيم وابنه

(١) راجع البحث الروائي حول الآية في تفسير الميزان.

(٢) مجمع البيان ١ـ٢: ٧٩٧.

إسماعيل عليهما السلام فهما اللذان عمرا البيت، بأن رفعا قواعده بعد ذلك[1].

أما الأرض التي اختيرت للكعبة وأنشأت عليها، فيصفها الإمام علي عليه السلام بأنها: أوعر بقاع الأرض حجراً: أي أصعبها، ومكان وعر بالتسكين، صعب المسلك أو المقام.

أقل نتائق الأرض مدراً: أصل هذه اللفظة من قولهم «**امرأة منتاق**» أي كثيرة الحبل والولادة، ويقال: ضيعة منتاق أي كثيرة الريع، فجعل عليه السلام الضياع ذوات المدر التي للحرث نتائق، فكان معنى قوله: إن مكة أقلها صلاحاً للزرع، لأن أرضها حجرية. وقيل: إن النتائق جمع نتيقة وهي البقاع المرتفعة، ومكة مرتفعة بالنسبة لما انحط عنها من البلدان.

والمدر: قطع الطين اليابس، وأقل الأرض مدراً، لا ينبت إلا قليلاً.

القطر: الجانب. رمال دمثة: سهلة، وكلما كان الرمل أسهل، كان أبعد عن أن ينبت، أو أنها تكون لينة فيصعب السير فيها والاستنبات منها.

إن الذي يبدو من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن جبريل عليه السلام هو أول من بنى البيت الحرام، وأن الملائكة هي أول من طاف بهذا البيت، وهكذا صار الطواف حول البيت سنة الأنبياء

وعيون وشلة: أي أنها قليلة الماء. والوشل بفتح الشين هو الماء القليل، ويقال: وشل الماء وشلاناً أي قطر.

لا يزكو بها خف ولا ظلف: لا تزيد الإبل فيها أي لا تسمن. والخف ههنا هو الإبل. أما الحافر فهو الخيل والحمير. والظلف الشاة، فيكون المعنى: ليس مرعى يرعاه الغنم فتسمن. وكل هذا (الخف والحافر والظلف) تعبير عن الحيوان بما ركبت عليه قوائمه.

(١) وسائل الشيعة ٩: ٣٨٦.

الأحب إلى الله تعالى: هذا هو واقع البيت أرضاً وبناءً وضحته هذه الكلمات البليغة، إلا أنه الأحب من جميع بقاع المعمورة إلى الله سبحانه وتعالى، والأفضل والأكرم عنده تعالى، وهو حرمه وبيته، ويكفيه منزلة عظيمة، وشرفاً كبيراً أنه أضيف إليه تعالى فهو بيت الله وهو حرم الله، إضافة إلى أن النظر إليه جعلته الشريعة عبادة يثاب عليها المؤمن ويغفر الله تعالى له ذنوبه.

وكل هذا نجده فيما تظافر من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

فقد روى الصدوق عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «**أحب الأرض إلى الله تعالى مكة، وما تربة أحب إلى الله عز وجل من تربتها، ولا حجر أحب إلى الله من حجرها، ولا شجر أحب إلى الله من شجرها، ولا جبال أحب إلى الله من جبالها**»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها. ثم أومأ بيده نحو الكعبة. ولا أكرم على الله عز وجل منها، لها حرّم الله عزّوجل الأشهر الحرم في كتابه، يوم خلق السموات والأرض ثلاثة متوالية للحج: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة، رجب»(٢).

النظر إليها:

وجعل الله تعالى النظر إليها من منازل رحمته، فعن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**إن الله تبارك وتعالى جعل حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين**»(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «**النظر إلى الكعبة عبادة... وقال: من نظر إلى الكعبة كتبت له حسنة، ومحيت عنه عشر سيئات**»(٤)، وعنه: «**من نظر**

---

(١) وسائل الشيعة ٩: ٣٨٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٦٤.

(٣) وسائل الشيعة ٩: ٣٦٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣.

إلى الكعبة لم يزل تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة حتى ينصرف ببصره عنها»[1]، وعنه: «**من أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة**»[2].

المنزلة المباركة:

ثم انتقل الإمام علي عليه السلام بعد ذلك و في الخطبة نفسها، ليصوغ بعبارات أخرى غنية بالمعاني والبيان ما آلت إليه هذه البنية المتواضعة من منزلة عظيمة مباركة في السماء، و من موقع مقدس في القلوب، ومن مكانة كبيرة في النفوس، ومن حضور حي في وجدان المؤمنين وفي أرواح الموحدين لا يخبو نوره ولاينطفئ ضياؤه ولا ينضب معينه ولا تموت حركته... فيقول عليه السلام:

ثمّ أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم. تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم، شعثاً غبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، و شوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته، ووصلةً إلى جنته.

إنها بقعة – مع كونها قفراء جدبة وعرة ضيقة ـ غدت مثابةً وأمناً «**مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم**». لنقف قليلاً عند شرح هذا المقطع.

وقبل هذا لا بد من أن نردف هذا المقطع بمقطع آخر للإمام عليه السلام أيضاً يشبهه، حيث يصف فيه حال الوافدين إلى الكعبة الطائفين بها... بالقول: «**وفرض عليكم حج بيته الحرام**»، وفي آخر هذه الخطبة في الصفحة ٤٥من نهج البلاغة لصبحي

(١) المصدر نفسه ٢: ١٣٠.

(٢) ثواب الأعمال: ١٧.

الصالح، قال عليه السلام أيضاً: «**فرض حجه، و أوجب حقه، وكتب وفادته، فقال سبحانه: ﴿وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ﴾ ـ الذي جعله قبلة للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه ولوه الحمام** ـ أي يلوذون به ويعكفون عليه. ثم قال عليه السلام: «**وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزته**». ثم راح عليه السلام يصف و يثني على من اختارته السماء وكانوا بحق وحقيقة حجاج بيته الطائفين به والعاكفين فيه والقائمين والركع السجود، فاستحقوا بذلك أن يقول علي عليه السلام فيهم: «**واختار من خلقه سماعاً، أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه**».

إن هؤلاء هم الذين من أجلهم جاء أمر الله تعالى لنبيه إبراهيم الخليل عبر آيتين قرآنيتين: ﴿**وَعَهِدْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ أَنْ طَهِّرٰا بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِينَ وَ الْعٰاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[1]، ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِينَ وَالْقٰائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[2]. إنه تطهير من الأوثان والأصنام، التي كانوا يعلقونها على باب البيت، أو من الفرث والدم الذي يطرحه المشركون عند البيت قبل أن يصير بيد إبراهيم وإسماعيل، أو طهراه بنياناً بكماله على الطهارة[3]... إلا أنه ورد في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية: ﴿**أَنْ طَهِّرٰا بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِينَ..**﴾ يعني «**نحّ عنه المشركين**»[4].

ولم يتوقف سلام الله عليه عند هذا، بل بين لنا ما كانوا يهدفون إليه في صدق عبادتهم وإخلاص نواياهم، وما كانوا يجنونه من ذلك فقال: «**يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته**».

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) سورة الحج: ٢٦.

(٣) أنظر مجمع البيان في تفسير الآية ١٢٥، من سورة البقرة.

(٤) راجع البحث الروائي حول الآية في تفسير الميزان.

ما أعظمها من تجارة وما أزكاها ! وما أطيبها من أرباح وأحلاها ! راحوا يتسابقون إلى اقتطافها، ويسارعون إلى اقتنائها بلهفة عالية وشوق عظيم ! وما هي هذه الأرباح ؟ ! وأين تكمن هذه الأرباح ؟! إنها الأعظم ثواباً والأكبر أجراً، إنها التوبة والمغفرة! إنها هناك حيث الجنة، التي عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين !

فالأمر الإلهي كان تكليفاً لآدم عليه السلام وولده، وبالتالي فهو دليل على وجود البيت في زمانه، وإلا كيف يؤمرون بزيارته...؟!

أن يثنوا أعطافهم نحوه: ثنى عطفه إليه، أي مال وتوجه إليه، أي يقصدوه ويحجوه، وعطفا الرجل: جانباه.

فصار مثابة، أي يثاب إليه ويرجع نحوه مرة بعد أخرى.

لمنتجع أسفارهم: أي لنجعتها، والنجعة هي طلب الكلا في الأصل، ثم سمي كل من يروم النفع منه منتجعاً، أي محل الفائدة منها.

وغاية لملقى رحالهم: أي أن البيت صار هو الغرض وهو المقصد، وعنده تلقى الرحال، بأن تحط رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السفر، لانهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة. وملقى مصدر ميمي، أي نهاية حصر حالهم عن ظهور إبلهم.

تهوي إليه ثمار الأفئدة: ثمرة الفؤاد: سويداء القلب، ومنه قولهم للولد هو ثمرة الفؤاد. وتهوي إليه أي تتشوقه وتحنّ نحوه، أو تسرع سيراً إليه . والمراد بالثمار هنا الأرواح، وهو ما يذهب إليه صبحي الصالح.

المفاوز: جمع مفازة . والفلاة سميت مفازة إما لأنها مهلكة من قولهم: فوز الرجل أي هلك، وإما تفاؤلاً بالسلامة والفوز، والرواية المشهورة «**من مفاوز قفار**» بالإضافة. وقد روى قوم «**من مفاوز**» بفتح الزاء، لانه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا «**قفار**» صفة... الفلاة التي لا ماء فيها. والسحيقة: البعيدة. والمهاوي: المساقط أو الهوات، أي منخفضات الأراضي. أما الفجاج فهو جمع فج، وهو الطريق بين الجبلين، أو الطرق الواسعة بين الجبال.

يهزوا مناكبهم: يحركهم الشوق نحوه، إلى أن يسافروا إليه، فكنى عن السفر بهز المناكب وهي رؤوس أكتافهم.

يرملون، الرمل: السعي فوق المشي قليلاً، فهو ضرب من السير فوق المشي ودون الجري.

شعثاً غبراً: أي لا يتعهدون شعورهم، فشعورهم منتشرة ملبدة. كما أنهم لا يهتمون بثيابهم ولا بأبدانهم، التي علاها الغبار.

وشوهوا بإعفاء الشعور: غيّروا محاسن صورهم، بأن أعفوا شعورهم، فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه، ونبت في غيره من الأعضاء، التي جرت العادة بإزالتها عنها، فتركوها بلا حلق ولا قص.

وتمحيصاً بليغاً: التمحيص هو التطهير من محصت الذهب بالنار إذا صفيته مما يشوبه، ويأتي التمحيص بمعنى الامتحان والاختبار. وبما أن الإمام عليه السلام ذكر كلا منهما فقال: وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً، فالمناسب أن نأخذ بالمعنى الأول أي تطهيراً بليغاً.

جعله الله سببا لرحمته، ووصلة إلى جنته: إنها نتيجة من يجتازون ذلك الامتحان، إنها الخاتمة التي يمنّ الله تعالى بها على عباده الفائزين باختبار السماء. فكان هذا البيت بترابه و بأحجاره وبأجوائه قاعة امتحانية اختبارية تمحيصية كبرى لكل النفوس والأرواح والأجسام، التي أوت إليها وقد وطنت جهدها وكدحها ومالها وفراق أهلها وأحبتها لاجتياز ذلك الامتحان والفوز بما هيأته

السماء من درجات عالية ورتب باهرة.

إنها رحمة الله سبحانه، التي وسعت كل شيء، وإنها جنة الله عز وجل، التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. حقاً إنه سبب ما أعظمه! حقاً إنه وصلة ما أجلها وأجملها! حقاً إنها طريقان مباركان ينتهيان برحمة الله تعالى وجنته! حقاً إنه دار ضيافة ما أكرم صاحبها وما أطيب موائدها! حقاً إنها رحلة عطاء، وأي عطاء! إنه عطاء السماء الذي لا حدود له! حقاً إنه جزاء ما أعدله جاء على قدر الابتلاء!!...

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**وهذا بيت استعبد الله به خلقه، ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محل الأنبياء وقبلة المصلين، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال...**»[1]. وهكذا تلتقي كلماتهم عليهم السلام في كون البيت وضع للاختبار والابتلاء، وانه باب رحمة ونجاة للعباد...

وفي هذا المقطع يتناول الإمام عليه السلام موقعاً آخر مغايراً للموقع الأول، وما لو قدّر أن يكون موضعاً للكعبة. وما لو كانت مواد بنائها غير تلك التي بنيت منها. ماذا سيترتب على هذا التغيير؟ إنه سؤال كبير وخطير! وهو ما سنرى جوابه، الذي لا يقل أهمية عنه، وسنراه فيما بعد الفقرات التالية:

وسهل وقرار: أي في مكان بدرجة من السهولة يستطيع معها الناس الاستقرار فيه، ولا ينالهم من المقام به مشقة. والقرار يأتي أيضاً بمعنى: المطمئن من الأرض.

وجم الأشجار: أي كثير الأشجار.

داني الثمار: قريبها.

ملتف البنى: أي مشتبك العمران كثيره. البرة: الواحدة من البر، وهو

(١) سفينة البحار ١: ٢١١.

الحنطة. السمراء: أجودها، الأرياف: جمع ريف: الأرض الخصبة، أو الخصب والمرعى في الأصل وهو ههنا السواد والمزارع. والعراص: جمع عرصة، الساحة التي ليس بها بناء. محدقة: أي محيطة. ومغدقة: غزيرة، والغدق: الماء الكثير. ناضرة: ذات نضارة ورونق وحسن. هذا فيما يخص موقع البيت.

أما فيما يخص بناءه، فيقول عليه السلام: «**ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء**».

فالزمرد: الزبرجد: وهو حجر نفيس أخضر اللون شديد الخضرة شفاف. وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً، واحدته زمردة. وقيل: هو حجر كريم ذو ألوان كثيرة، أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة، معرب، وهو أكثر المعادن صلابة بعد الماس، ولونه في الغالب شفاف مشرب بالحمرة أو الزرقة أو الصفرة، وأجوده الأحمر الرماني. واحدته أو القطعة منه ياقوتة، الجمع: يواقيت.

وهنا تكمن الإجابة عن السؤال، الذي ذكر أعلاه، والإجابة التي ذكرها الإمام عليه السلام تتوفر على عبارتين:

الأولى: جاءت بعد: «**ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام بين جنات وأنهار...**»، «**لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء**» هذا هو الجواب الأول. وهو أمر يتعلق كما هو واضح بالأجر والثواب، وأن الأجر والثواب يأتي على قدر المشقة التي تواكب التكليف المراد من المؤمن إنجازه والقيام به، والتكليف هنا هو مناسك هذه الفريضة المباركة ومشاعرها في الديار المقدسة. فكلما كانت التكاليف متعباً أداؤها، كلما تعاظم أجرها، وعظم ثوابها. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل.**

الثانية: جاءت بعد: «**ولو كان الأساس المحمول عليها...**» «**لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع**

المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره».

فمصارعة الشك، وروي مضارعة الشك بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس، وأصله من مضارعة القدر بكسر القاف وتسكين الدال، أي إذا حان إدراكها، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب. ويذهب الراوندي ـ كما يذكر ابن ابي الحديد، في تفسيره لهذه الكلمة (مضارعة الشك) ـ إلى أن معناها: مماثلته ومشابهته. ولكن ابن أبي الحديد يستبعد هذا لأنه لا معنى للمماثلة والمشابهة هاهنا، كما يذهب أيضاً إلى أن الصحيح مصارعة الشك بالصاد المهملة. ولنفى معتلج الريب: أي اعتلاجه، ومعتلج مصدر ميمي من الاعتلاج أي الالتطام، اعتلجت الأموال أي التطمت. فيكون المعنى: زال تلاطم الريب والشك من صدور الناس، أو لنفى اضطراب الشك في القلوب.

يجيب أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا بقوله: «إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناًللتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه».

إذن هذه هي النتيجة لكل هذا الامتحان والاختبار. فما أعظمها من نتيجة! وما أجملها من جائزة! إنها أبواب إلى فضله وأسباب إلى عفوه. ونبذ للباس التكبر وهوخلق - كما تعلمون - رديء، وتثبيت للتواضع في النفوس وهو خلق - كما تعلمون ـ عظيم. وهو ما يجعل فريضة الحج موقعاً ومناسك مدرسة تربوية أخلاقية ميدانية رائعة، لاتجد لها مثيلاً على الإطلاق. هدفها الأكبر وغايتها العظمى تربية الإنسان فرداً ومجتمعاً، فيعود إلى أهله ومجتمعه مبلغاً - مبشراً ونذيراً ـ فتتواصل عملية البناء في المجتمعات الإسلامية وفيما بينها وتنمو، وتتكامل النفوس وتتعزز الأواصر وتتمتّن العلاقات على أسس إيمانية واعية.

لقد راحت كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ترسم الحكمة العظيمة والفلسفة الرائعة لموسم الحج، وقد امتحن الله تعالى عباده بهذه المواقع، فراحوا ـ نفوساً وأجساداً ـ يطوفون بها خاشعة أرواحهم آمنة مطمئنة، وهي تتزاحم لاستلامها والتبرك بها،

لا يرتابها القنوط من رحمته تعالى، وكيف يداخلها اليأس من رحمته وهي في ضيافته تعالى؟! وهم يقرأون ويسمعون قوله تعالى: ﴿ قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1] ويقرأون ويسمعون أيضاً قوله تعالى: ﴿ ..وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ﴾[2]؟! إنه الانقياد الخالص لله تعالى والتسليم له والطاعة المطلقة لإرادته والامتثال لأوامره والتطبيق الجاد الكامل لها، والثقة العالية بعفوه ورحمته ورضاه. وإنه الحكمة البالغة أن يبتلي الله عز وجل عباده ببذل المال والجهد للوصول إلى بيته المكرم للطواف به والتعبد عنده والتضرع بجواره، وهو لم يكن من زمردة خضراء ولم يكن من ياقوتة حمراء ولم يكن من نور وضياء، وهي نفائس تستحق أن يشدّ لها الرحال، وتستحق أن يتحمل من أجلها الإنسان العناء والمخاطر، وبذل المال، وفراق الأهل والأحبة، إذا ما قسنا الأمور بالموازين الدنيوية، وأن الإنسان ميّال للمال وللمتعة والراحة والدعة ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[3]، أما أن يتحمل الحاج كل ذلك للمجيء إلى بناء من البساطة بدرجة كبيرة متكون من أحجار وصخور وطوب، ضمته أرض جرداء تحيطها جبال صماء، كل شيء فيها يتصف بالجفاف والشحوب بل وحتى بالذبول، ليعبد ربه ويستغفره ويتضرع إليه في تلك الأيام التي باركتها السماء. فهو أمر يحتاج إلى رصيد إيماني راسخ ويقين ثابت وقناعة بما يترتب على ذلك من أجر وثواب، ويحتاج أيضاً إلى صبر ومثابرة ومجالدة لهوى النفس ومجاهدة لرغباتها في الدعة والاسترخاء، وبغضها للمتاعب وركوب المخاطر.

إنها إرادة الله تعالى في أن تكون نوايا القاصدين والذين يؤمّون بيته الحرام نابعة من وعي وإيمان، ومن معاناة صادقة خالصة من كل شائبة مادية ودوافع

(١) الزمر: ٥٣.
(٢) الحجر: ٥٦.
(٣) العاديات: ٨.

دنيوية... ولو قدر أن يكون موقع الكعبة كما يصفه الإمام عليه السلام: «**بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى**». وليس هذا فقط بل هو أيضاً كما يصفه عليه السلام: «**بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة**». ولو قدر أن يكون بناؤها من أحجار غير تلك الأحجار التي هي عليها، أي من أحجار معروفة بنفاستها كالتي ذكرها الإمام عليه السلام: «**زمردة خضراء، وياقوتة حمراء**» ثم يضيف عليها شيئاً آخر ألا وهو: «**ونور وضياء**»...

لرأيت - إذا ما اكتملت هاتان الصورتان صورة الموقع وصورة البناء - ماذا ستكون عليه الكعبة من مزرعة رائعة الجمال، و من بريق وهاج، ومن رونق جذاب يأخذ بالقلوب والأبصار، وعندئذ تكون منتجعاً تستروحه الأفئدة والأبدان، وتستجمله النفوس والأجسام، ومكاناً للاسترخاء والدعة والطمأنينة، يستريح فيه القادمون من وعثاء الطريق ومشاق الرحلة، وبالتالي يغدو مكاناً للنزهة والاستجمام لا ميداناً للاختبار والامتحان! هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن نفاسة هذه الأحجار هي التي تشكل الدافع القوي بل الأول لتصديقهم واعتقادهم بأن هذا البيت هو بيت الله، ثم تدفعهم إلى الطواف حوله والمكوث عنده، وهو قوله عليه السلام: «**لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور**».

ومن ناحية ثالثة، فإن زيارة الكعبة تكون بسبب إعجابهم وانبهارهم بدررها ونفاسة أحجارها، ولكي يتمتعوا بمنظر البيت وزينته. وبالتالي لا يكون دافعهم وقصدهم مجاهدة إبليس، الذي يدعوهم إلى ترك حج هذا البيت، والذي يشجعهم على اختيار الدعة والراحة والسلامة وهو مبدؤه ومبتغاه. لهذا جاء قول الإمام عليه السلام: «**ولوضع مجاهدة إبليس في القلوب**» من ناحية رابعة.

إنها قصة الابتلاء والامتحان والاختبار والتمحيص، التي تؤدي بدورها ونهايتها إلى نتيجة كبيرة طالما انتظرتها النفوس الصابرة وتشوقت إليها القلوب المؤمنة، وتلهفت إليها الأرواح المطمئنة. إنها رحمة الله تعالى، والوصول إلى جنته

التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ! إنها المعادلة العادلة بين عظمة الابتلاء وعظمة الجزاء، حقاً «**كلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل**». التشابه في الابتلاءات: إنها إرادة الله عز وجل ومشيئته هنا في ابتلائه الناس بالكعبة بموقعها وأحجارها، كما هي إرادته ومشيئته في أن يخلق نبيه آدم عليه السلام من طين لا من نور وطيب كما هو قول الإمام علي عليه السلام: «**ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه، لفعل**»، أما التعليل فهو: «**ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة**».

ثم يبين الإمام عليه السلام حقيقة هذا الابتلاء، التي تنفعنا في هذا المورد وفي غيره من موارد الابتلاء الأخرى، والتي منها موضوع مقالتنا وهو الكعبة، التي نجهل الكثير من حكمة وجودها والاختبار والتمحيص بها . فيقول عليه السلام: «**ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم**». وهذا وذاك هو عين الحكمة في أن الأنبياء والرسل عاشوا في ضعف وفقر وعوز، وهو ما يتناوله الإمام عليه السلام مبيناً ما سيؤول إليه ذلك لو كان كما في النص التالي:

«**ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، وملك تمتد نحوه أعناق الرجال، وتشتد إليه عقد الرحال. لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمة**»[1]. وهو يشبه اختبارات أخرى تمر على العباد وهي تحمل الهدية والبشرى، أتعلمون لمن هذه البشرى ؟! إنها للصابرين وهم الذين خرجوا من قاعة الاختبار بأنواعه المتعددة فائزين ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ**

(١) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة.

وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]. إنها سنة السماء في الاختبار ليتبين الحق من الباطل والخالص من الشائب ﴿أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ...﴾[2].

إن فريضة الحج تعد اختباراً عظيماً يدخله المؤمن ولو مرة واحدة في حياته، فطوبى للذين قبلت السماء حجهم فهم الصابرون الناجحون بالامتحان الرباني الفائزون بالثواب العظيم!

وقفة:

هذا و أن ما نلا حظه اليوم في الكعبة خاصة و عموم مكة والمدينة وباقي المدن من وضع عمراني ملفت جامع لوسائل الراحة، ومن أبنية للعيش والسكن والاستقرار،، وما نراه من مؤسسات ومراكز لرعاية الحجيج وتسهيل أمورهم... إضافة إلى تطور وسائل النقل بين دول العالم.. هدف كل هذه وغيرها توفير الأمان والسلامة والراحة وتخفيف معاناة المسافرين والقادمين لأداء فريضة الحج والزيارة.. جعلني أستطيع أن أقول: ما عادت رحلة الحج متعبة وشاقة كما كانت عليه، بل إن سفرة الحج في عصرنا غدت سفرة ممتعة، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب! وقد يكون كل هذا سبباً في تقليل الأجر والثواب إذا ما لاحظنا بأن الثواب على قدر المشقة كما يذكر، وأن هناك مدخلية للمشقة في زيادة الأجر. وهذه المتاعب والمشقة و بسبب ما ذكرناه أعلاه قد تنعدم أو

(١) البقرة: ١٥٥.

(٢) العنكبوت: ٢.

تقل كثيراً، وبالتالي قد ينقص الثواب، فما علينا والحالة هذه إلا مزيداً من الصدق والإخلاص في أداء المناسك، وإلا مضاعفة الأعمال التي ترضي الله سبحانه، والإكثار من عبادته صلاةً ودعاءً وطوافاً وسعياً... وعدم تضييع الوقت بغير النافع في هذه المناسبة التي قد لا تعود أو لا نوفق لمثلها والعياذ بالله، حتى لا يفوتنا الأجر الأكمل والثواب الأعظم، ولعل ما نقدمه من عبادات بصدق يعوضنا عما قد يفوتنا من الثواب. والله تعالى العالم وهو الغني الكريم.

الحجر الأسود الناطق الشاهد:

صحيح أن هذه التي يطوف بها الناس أبنية من أحجار صماء لا تضر ولا تنفع، ولكن هذا لا يمنعها من أن تنطلق لتشهد بإذن ربها لمن وافاها ولمن عاهدها، فهي ليست بعيدة عن ملكوت السماء، وعما أثبتته لها السماء من حكم ومعان ودور ينتظرها هناك، فقد تختزن هي والمناسك من حولها أسراراً وأموراً ووظائف عهدت إليها، وقد خبئت أو أخفيت عنا لمصالح الله أعلم بها، أو صعبت علينا معرفتها ونحن بها جاهلون. تظهر لنا هناك يوم القيامة: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾[1]، وعند مليك مقتدر وهو ﴿**الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[2].

وقد وردت أحاديث عديدة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام بخصوص الحجر الأسود دون غيره من الأحجار، لما يتمتع به من امتيازات لا تتوفر في غيره من الأحجار والصخور في الكعبة أو في المواقع الأخرى من الحرم الشريف، وهذه الخصوصية للحجر الأسود من أنه يمين الله تعالى في الأرض، وأنه ناطق شاهد يوم القيامة على من زاره ووافاه وعاهده كما صرحت به روايات هذه المدرسة، هذه الخصوصية لم أجدها لغيره، ولعله اختص بها دونه، وكيف لا تكون له هذه الميزة وهذه الفضيلة والطواف يبدأ منه وينتهي إليه؟! وكيف لا ينطلق لسانه بتلك

(١) آل‌عمران: ١٠٦.

(٢) فصلت: ٢١.

الشهادة ويستحب للحاج أن يقول عنده إذا ما استلمه أو قبله أو أشار إليه: «هذه أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي بالموافاة، اللهم تصديقاً بكتابك، وعلى سنة نبيّك، أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، آمنت بالله وكفرت بالجبت والطاغوت وباللات والعزى وعبادة الشيطان، وعبادة كل ندّ يدعى من دون الله»[1].

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أن عمر بن الخطاب مر على الحجر الأسود، فقال: والله يا حجر إنا لنعلم أنك لا تضر ولا تنفع، إلا أنا رأينا رسول‌الله صلى الله عليه وآله يحبك فنحن نحبك. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يا ابن الخطاب! فوالله ليبعثنه الله يوم القيامة وله لسان وشفتان، فيشهد لمن وافاه، وهو يمين الله عز وجل في أرضه يبايع بها خلقه. فقال عمر: لا أبقانا الله في بلد لا يكون فيه علي بن أبي طالب.

وعن عبد الله بن سنان أنه قال: «بينا نحن في الطواف إذ مر رجل من آل عمر، فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فانتهره وأغلظ له وقال له: بطل حجك، إن الذي تستلمه حجر لا يضر ولا ينفع. فقلت لأبي عبد الله... فقال عليه السلام: كذب ثم كذب ثم كذب، إن للحجر لساناً ذلقاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة». ثم ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريته، وأن الحجر التقم الميثاق من الخلق كلهم. إلى أن قال: «**فمن اجل ذلك أمرتم أن تقولوا إذا استلمتم الحجر: أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة يوم القيامة، آمنت بالله وكفرت بالجبت والطاغوت واللات والعزى وعبادة الشيطان وعبادة الأوثان وعبادة كل ند يدعى من دون الله عزّوجل**»[2].

وقد يكون الاستلام أو التقبيل تعبيراً عن تجديد للبيعة أو للعهد والميثاق، ولهذا راح الحجاج يتزاحمون بشدة على استلامه وتقبيله ومسحه، وإن لم يتيسر

(١) وسائل الشيعة ١٣: ٣٠٢، ٣١٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٣٠.

ذلك يشار إليه باليد، مع أن هذا كله ليس بواجب وإنما هو مستحب لا أكثر، ولهذا يجيب الإمام الصادق عليه السلام من كان يستغرب منه تركه استلام الحجر الأسود فيقول: «**أكره أن أؤذي ضعيفاً أو أتأذى**»[1].

وأجاب عليه السلام عن سؤال وجه إليه عن امرأة حجت وهي حبلى يزاحم بها حتى تستلم الحجر. فقال عليه السلام: «**لا تغرروا بها**»[2]. وورد عنهم عليهم السلام: «إن الله وضع عن النساء أربعاً، وعدّ منهن استلام الحجر».

ولزيادة الاطلاع حول الحجر الأسود في قصته التاريخية والفقهية والروائية في المذاهب الإسلامية، تراجع مقالتنا في العدد ٤ من هذه المجلة، ١٥١ـ١٧٩.

الدعاء:

هذا، وقد اتخذت مدرسة أهل البيت عليهم السلام من الدعاء وسيلة بل أعطته دوراً كبيراً ورئيسياً لتحقيق الأهداف والمقاصد المترتبة على وجود هذا البناء المقدس بكل مفاصله، التي أوجبت السماء على المكلفين بالحج والمعتمرين ارتيادها وتأدية ما عليهم من أعمال ترافقها الأدعية، التي لا تجد مكاناً يخلو منها، ولا مفصلاً عبادياً إلا وهي غذاؤه، بل لا تجد لساناً إلا ويتمتم بها، أو يكون غير هذا والدعاء لب العبادة أو مخها، ومن خلاله يتم التسامي الروحي والتعلق بعالم الغيب، وتثبيت الإيمان به، وتركيز التوحيد وتعظيمه، والفوز برضا الرحمن، واتباع سنة الأنبياء والأئمة عليهم صلوات الله وسلامه، وقبول الأعمال، وغفران الذنوب... ؟! وقد وردت أدعية كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام، اكتظت بها كتب الحديث، واحتلت مكانة كبيرة في مناسك هذه الفريضة المباركة.. وقد جمع طاقة جيدة منها سماحة الأخ الأستاذ الشيخ محمد علي المقدادي في مقالته القيمة: مع أدعية الحج. المنشورة في العدد ١٨ من هذه المجلة.

---

(١) الكافي ٤: ٤٠٩.

(٢) التهذيب ٥: ٣٩٩.